رِحْلَةُ العُمُرِ وَأَسْرَارُ الحَجِّ

(خطبة الجمعة للشّيخ عبد الحق شطّاب بمسجد الشّيخ أحمد حفيظ رحمه الله

يوم 26 ذو القعدة 1433هـ الموافق لـ 12 أكتوبر 2012م)

الخطبة الأولى:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفُسِنا ومن سيِّئات أعمالِنا، من يهدِه الله فهو المُهتد ومن يُضلل فلن تجِد له وليًّا مرشدًا،

أشهد أن لا إله إلاّ الله وحدَه لا شريك له وأشهد أنّ مُحمّدا عبدُه ورسوله،

" **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿01﴾** " سورة النّساء.

" **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿102﴾** " سورة آل عمران.

" **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿70﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿71﴾** " سورة الأحزاب.

ألا وإنّ أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمّدٍ – صلّى الله عليه وآله وسلّم –،

وشرّ الأمور مُحدثاتها وكلّ محدثة بدعة وكلّ بدعة ضلالة أعاذنا الله من الزّيغ والضّلال،

معاشر الإخوة الكرام، في هذه الجمعة المباركة، نتناول موضوع :

رِحْلَةُ العُمُرِ وَأَسْرَارُ الحَجِّ

معاشر الإخوة الكرام ،

إن الله تعالى إختار من سائر الأيّام يوم الجمعة ، ومن سائر اللّيالي ليلة القدر ، ومن سائر الشّهور شهر رمضان ، ومن سائر المواسم موسم الحجّ .

قال تعالى : " **وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿26﴾** " **سورة الحجّ** .

البيت طاهرٌ ولا يدخله إلا طاهرٌ مُطهّرٌ ، ولا يكون المرء عن طهرٍ إلاّ بالتّوحيد .

إنّها رحلة العمر ، هناك من يرحل للتّجارة ، وهناك من يرحل للسّياحة ، هناك من يرحل للتّزهة ، هناك من يرحل للزّيارة ، أمّا الحجّ فقد جمع كلّ ذلك وزيادةً ، قال عليه الصّلاة والسّلام : (**من حجّ فلم يرفث ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه**) .

يقول القائل : (**يرجع بصفحةٍ بيضاءَ**) ، وأنا أقول يرجع الحاجّ بصفحةٍ مملوءةٍ حسناتٍ ، لأنّ الّذي يُمْحَى هي السّيئات ، أمّا حسناته فهي باقيةٌ إضافةً إلى حسنات الحجّ وما أدراك ما حسناته .

كلّ عبادةٍ إمّا هي عبادةٌ زمانيّةٌ أو مكانيّةٌ ، الصّيام في شهر رمضان ، والصّلاة في أوقاتها ، إلاّ الحجّ جمع الزّمان والمكان، كأنّ الله يقول لك : (إن كنت في 9 ذي الحجّة وفي عرفةٍ ، فقد غفرت لك وأدخلتك جنّتي) .

أعجب عجبًا شديدًا وأنا ألاحظ استرسال بعض الوعّاظ وحرص كثيرٍ من النّاس على معرفة أحكام الحجّ ، وهو أمرٌ لابدّ منه ، ولكن ما ينبغي الغفلة عن أسرار الحجّ الّتي قصدها الشّارع .

ذلك لأنّ الأمور يُنظر إلى معانيها ومقاصدها ، لا إلى مبانيها وأشكالها .

للحجّ أسرارٌ لا يعرف شأنها إلاّ بمعرفتها وإدراكها . " **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿27﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ . . . ﴿28﴾** " سورة الحجّ .

الحجّ ، إخوتي الكرام ، هي رحلة العمر ، رحلة القلوب قبل أن تكون رحلة الأبدان ، كما يتصوّر البعض.

لذلك قال تعالى : " **رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿37﴾** " سورة إبراهيم .

قال فاجعل أفئدةً { إنّها رحلةٌ بالقلوب لا بالأبدان ، رحلةُ قلوبٍ مشتاقةٍ وأرواحٍ منقادةٍ تنجذب لبيت المحبوب } .

ولذلك قال ابن الجوزي : (واعلم أنّ الطّريق الموصل إلى الحقّ سبحانه ليست ممّا يُقطع بالأقدام ، وإنّما يُقطع بالقلوب) هي رحلةٌ بالقلوب إلى الغفور الودود .

إن للحجّ أسرارٌ جليلةٌ :

1- في الحجّ الكلّ يلبّي بأعلى صوته ، ناطقًا بكلمة التّوحيد : **لبّيك اللّهمّ لبّيك ، لبّيك لا شريك لك لبّيك ، إنّ الحمد والنّعمة لك والملك لا شريك لك .**

ثلاث ملايين أو أكثر يرفعون أصواتهم بكلمة التّوحيد ، لا شريك لك لبّيك ، لا معبود بحقٍّ إلاّ أنت ، لبّيك يا ربّ ، ناديتني فجئتك تائبًا ، جئتك معترفًا بذنبي ، جئتك راجيًا مغفرتك ، راجيًا تجاوزك ، جئتك مقصّرًا مفرّطًا ، أرجو غفرانك ، أرجو رحمتك بل أرجو أفضالك ، وأنت القائل " **الحجّ المبرور ليس له جزاءٌ إلاّ الجنّة** " ، كما أخبر بذلك رسولك الكريم .

ارتضينا رسولك قائدًا ، لبّيك ارتضينا الإسلام دينًا ، لبّيك ارتضينا شرعك حَكَمًا ، لبّيك ارتضينا رسولك قدوةً ورسولاً.

2- ما أكثر أسرار الحجّ ، سبحان الله تقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة وقصّ الشّارب وإكرام شعر الرّأس كلّه محمودٌ وصاحبه مُثابٌ في غير أيّام الحجّ ، بينما تصبح حرامًا في أيّام الحجّ ، ما الحكمة من ذلك ؟

الحكمة من ذلك أنّ الله السّيد ونحن العبيد ، والعبيد لا يملكون إلاّ التّنفيذ والتّطبيق ، نتعلّم من الحجّ الإستجابة لأمر الله تعالى دون أن نسأل أو نناقش ، مثلما لا نناقش لماذا الظّهر أربعًا والمغرب ثلاثًا ، إنّنا عبيد لله تعالى والعبيد لا يملكون إلاّ الطّاعة والإمتثال .

3- في الحجّ طواف بالبيت الحرام ، وليس المقصود تعظيم الحجر وإنّما تعظيم رمز التّوحيد المتمثّل في البيت .

قال تعالى : " **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿ 96 ﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿ 97 ﴾** " **سورة آل عمران** .

هو بيت رمزٌ للتّوحيد رمزٌ للعبوديّة لله وحده دون سواه ، ولذلك فإنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال في الحجر الأسود : (**إنّني لأعلم أنّك حجر لا تنفع ولا تضرّ ، ولولا أنّني رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبّلك ما قبّلتك**) .

4- وبعد الطّواف صلاةٌ أمام مقام إبراهيم ، نتذكّر سيّدنا إبراهيم عليه السّلام وتوحيده لله تعالى ، تذكير بإسماعيل عليه السّلام ، رمز الطّاعة والتّضحية والإستجابة ، في الطّواف تذكُّرٌ للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والصّحابة الكرام الّذين كانوا يطوفون بالبيت العتيق .

5- في الحجّ من السُّنَّة الشّرب من ماء زمزم (زمزم طُعْمُ طعيمٍ وشِفاء سقيم) ، ومعناه بشربها يستغني عن الطّعام ، وشفاءٌ من الأمراض ، وهذا من معجزات النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم .

ماء زمزم يحتوي من المعادن ما يحتاجه جسم الإنسان ، بنفس النّسب الّتي يحتاجها جسم الإنسان ، ولا يوجد ماءٌ على وجه الأرض فيه تلك النّسب .

يقول ابن القيّم أنّ أبا ذرّ الغفاري رضي الله عنه ظلّ 40 يومًا يشرب من زمزم ، لا يأكل ولا يشرب غيره.

6- في الحجّ الصّلاة الواحدة بـــ 100 ألف صلاةٍ في الحرم ، أي كلّ صلاةٍ بـــ 55 سنةٍ ، وزاد ابن عبّاس فقال حتّى الصّدقة بـــ 100 ألف صدقةٍ وهكذا . . .

تلك أفضال الحجّ ، تلك مكرمات الحجّ ، تلك نفحات الحجّ .

7- في السّعي بين الصّفا والمروة إشارةٌ إلى بذل الأسباب ، فإنّ أُمَّنا هاجر كانت تسعى باحثةً عن الماء لولدها ، والله هو ربُّ الأسباب والمسبّبات والنّتائج ، وهو الرّحيم اللّطيف ، ففجّر ماء زمزم لهاجر وابنها ، وفيه أنّ الرّزّاق هو الله تعالى ، والتّوكل عليه جلّ وعلا لا يغني عن توفير الأسباب ، لأنّ ذلك هو سنّة الله في كونه .

8- وفي رمي الجمرات تذكيرٌ عمّا ينبغي أن يكون عليه المسلم من الحذر من نزغاتِ ووسوسةِ الشّياطين ، وقد أقسموا على إضلال الإنسان .

" قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿ 16 ﴾ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿ 17 ﴾ " **سورة الأعراف** .

9- وفي اجتماع المسلمين من كل حدبٍ وصوبٍ لا فرق بينهم ، بين رئيسٍ ومرؤوسٍ ، ولا بين غنيٍّ وفقيرٍ ، ولا بين أبيضٍ وأسودٍ ، بيانٌ لما ينبغي أن يكون عليه المسلمون في حياتهم من التّساوي وعدم التّمييز ، فأفضلهم عند الله أتقاهم ، والجنس البشريّ كلّه عبيدٌ لله تعالى : " . . . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ . . ﴿ 13 ﴾ . " **سورة الحجرات** .

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه، إنّه هو الغفور الرّحيم.

الخطبة الثانية :

الحمد لله حمدًا كثيرًا مباركًا، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، أحمده على نعمه، وأشكره على فضله وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله ،

إخوتي الكرام ،

10- اجتماعٌ كان ينبغي أن يكون مؤتمرًا كبيرًا ، يتدارس فيه المسلمون حكّامًا ومحكومين ، عوامًّا وعلماء ، قضايا المسلمين ويوجِدوا لها حلولاً ومخارجَ .

11- في الوقوف بعرفة كأنه يوم الحشر الأكبر وقد قام الناس للحساب .

إنها رحلة العمر ، رحلةٌ إيمانيّةٌ ، رحلةٌ روحانيّةٌ ، رحلةٌ اجتماعيّةٌ ، رحلةٌ سياسيّةٌ ، رحلة تجديدٍ ، رحلة ولادةٍ جديدةٍ ، رحلة صفحةٍ جديدةٍ ، رحلة العهد مع الله ، رحلة الحياة الجديدة .

اللّهمّ أهدِنا فيمن هديْت وعافِنا فيمن عافيْت وقِنا شرّ ما قضيْت،
اللّهمّ لا تَدَعْ لنا في مَقامِنا هذا ذنبًا إلاّ غفرته، ولا دَيْـــنـــًا إلاّ قضيْته، ولا مريضًا إلاّ شفيْته، ولا حاجةً من حوائج الدّنيا أو الآخرة لك فيها رضًا ولنا فيها صلاحاً إلاّ قَضيْتها لنا ويَسَّرتَها لنا، يا أرحم الرّاحمين.
اللّهم إنّا نسألك فِعل الخَيْرات، وتَرْك المنكرات، وحُبّ المساكين، وإذا أردت بْقَوْمٍ فِتنةً فتَوَفَّنا غير فاتنين ولامفتونين.
اللّهم إنّا نسألك حُبَّك وحبّ من أحبّك وحبّ كلّ عمل يُقرّبنا إلى حبّك.
اللّهم اجعل خير أعمالنا خواتمها، وخير أيّامنا يوم لقاك.
اللّهم لا تأخذنا على حين غِرّة، ولا على حين غفلة.
اللّهم إنّك عفوٌ تحبّ العفو فاعف عنّا، اللّهم إنّك عفوّ تحبّ العفو فاعف عنّا.
اللّهم انصر الإسلام والمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها واخذُل ودمِّر أعداء الدّين في مشارق الأرض ومغاربها.
اللّهم انصر المظلومين في سورية وفي سائر بلاد المسلمين، اللّهم انصر المظلومين في سورية وفي سائر بلاد المسلمين، إنّك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.
سبحانك اللّهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلاّ أنت نستغفرك ونتوب إليك.